المبحث الثالث
لغة المقالة

سمات عامة

تعد اللغة اللبنة الأساسية في تركيب المعاني والصور التي يتناولها الكاتب في موضوعه ومن خلالها يعرض نظراته وآرائه ويكشف عما يجول في نفسه من مشاعر وأحاسيس. فقد اهتم الكتاب والأدباء القدامى باللغة واخذوا ينقحون رسائلهم الرسمية وغير الرسمية بالزخارف اللفظية وأساليب البلاغة العربية بحيث أصبح لكل كاتب لغة خاصة تميزه عن الكاتب الآخر والى جانب ذلك كان للشعر لغته الخاصة فأصبح لكل شاعر لغته المتميزة.

أخذت لغة المقالة في الأدب العربي الحديث تتطور بعد أن كانت تستخدم لغة المعاجم والألفاظ القديمة (الوحشية والغريبة) التي تحتاج جهداً كبيراً لدى المتلقي لفهمها؛ وبناءً على ذلك ظهرت اتجاهات جديدة في عصر النهضة فمنهم المحافظ، ومنهم من دعا إلى التحرر من القواعد والأصول، ومنهم يتوسط بين الاتجاهين (اتجاه المحافظ المجدد).

كانت الصحافة ركناً من أركان النهضة الحديثة، فقد حررت اللغة من آفاقها القديمة التي ورثتها عن عصور الانحطاط، إذ إنها الحقل الذي أزدهر فيه الفن الكتابي الذي أطلق عليه اسم (المقالة)[1] وبما أن الصحافة تحتاج إلى السهولة والبساطة والابتعاد عن كل غريب ووحشي وعدم التقيد بالسجع المتكلف فان اللغة أصبحت أكثر حياةً ونمواً وتجدداً[2]، فجاءت المقالة الصحفية مركزة وموجزة، لأن أكثر القراء يفضلون المقالة المركزة التي تستوعب الموضوع[3].

تتسم لغة محمود درويش بأنها لغة صحفية بسيطة وواضحة، فهو لا تخفى عليه صنعة اللغة فهو شاعر ومقالي في الوقت ذاته، فضلاً عن انه كاتب صحفي ترأس في حياته أكثر من مجلة سياسية أو أدبية ابتداءً من مجلة الجديد مروراً بمجلة شؤون فلسطينية وانتهاءً بمجلة الكرمل. وفي مقابلة صحفية يقول درويش: ((**أحب كتابة الأدب الصحفي والريبورتاج وتسجيل انطباعات عن الكتب والأحداث والأمكنة**))[4] فالأدب الصحفي ينبع من ذات الأديب ويحتاج إلى كتابة متينة وبسيطة وإلى جمهور

---

(1) ينظر: اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة، محمود تيمور: 32.
(2) ينظر: الصحافة وأثرها في تطوير اللغة: 32.
(3) ينظر: الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، جودت الركابي: 327.
(4) شيء عن الوطن: 285.

يقرأ[1].

وعلى المعيار السابق جاءت مقالات محمود درويش الصحفية ففي مقالة (الملف المفتوح) يقول:

((ليس جديداً أن يقال إن حرب الجنوب قد أعادت مفهوم الشرعية المعرض للانتهاك إلى خط الصواب. إن الذين يقاتلون دفاعاً عن ارض الوطن هم الذين يمتلكون الشرعية. أما المتفرجون على إيقاع الاحتلال، والمصفقون لانهيارات القرى فلهم أسماء أخرى، لقد كان المقاتلان الفلسطيني واللبناني في دفاعهما عن الأرض اللبنانية وجذوة الثورة العربية يعيدان صياغة الوعي القومي، ويدمران التجزئة))[2].

يظهر أن لغة درويش السهلة وبسيطة وواضحة تؤدي الفكرة والموضوع بصورة مباشرة إذ إن أدب المقالة اليوم هو عماد الألوان الأدبية والفكرية وقد تطور مع الزمن فتميز بالبساطة والإيجاز ففي مقالة (مرفوضون.. مرفوضون) يبدو ذلك جلياً:

((إن الرفض هو جوهر المقاومة، ولكن الرفض ليس مطلقاً وكاسحاً إلى حد رفض الذات، ورفض الممكن الذي ننجزه بكفاحنا، إننا نرفض المشيئة الأمريكية الإسرائيلية ونرفض التنازل عن حقوقنا التاريخية والسياسية في فلسطين، ونرفض التنازل عن الثورة. ولكن الكفاح من أجل تحقيق أهداف مرحلية، على طريق التحرير لا يجب أن يسمى قبولاً بمشيئة الأعداء، إنه شكل من أشكال رفضها. وإن مدى ما يمكن إحرازه يتلاءم مع مدى نضج قدرتنا على هذا الإنجاز... لقد حدد الإسرائيليون سياستهم الراهنة بوضوح لا تحتاج قراءته إلى ذكاء، رئيس حكومتهم يقول: (إن حكومة الأردن هي الطرف الوحيد الذي يمكن لإسرائيل أن تناقش معه المشكلة الفلسطينية)، ووزير خارجيتهم كرر القول: أن إسرائيل ترفض إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية؛ لأن إقامة دولة فلسطينية منفصلة عن الأردن لن تكون إلا قنبلة زمنية إلى اندلاع الحرب))[3].

ومن المقالة في أعلاه نرى اللغة السهلة البسيطة إذ إن ألفاظها واضحة ومفهومة يفهمها عامة الناس مهما اختلفوا في ثقافاتهم، كما يلاحظ على لغة درويش أنها صادقة في تعبيرها وتجسيدها لنفسية الكاتب وواقعه المعاش ففي مقالة (الأطلال المحنطة) يقول:

---

(1) ينظر: دراسات في الأدب العربي الحديث، عزيز السيد جاسم: 140.
(2) مجلة شؤون فلسطينية، العدد (78) لسنة 1978: 4.
(3) مجلة شؤون فلسطينية، العدد (37) لسنة 1974: 21.

((إن الذين بنوا هذا البلد صار اسمهم.. لاجئين! ولكن بيوتهم لن تتحول إلى أطلال، لأن الذين لجأوا إليها أرادوها أن تكون متاحف.. تحمل شهادات التراكتور على الثور!. إن هذه البيوت التي استبدلت أرواحها وروائحها وصلواتها ليس أكثر من أطلال حية. أو جثث غير مدفونة))[1].

فإذا أمعنا النظر في المقالة فإننا سنلاحظ أنها عبرت عن نفسية الكاتب وواقعه المعاش، فهو لاجئ ذاق مرارة اللجوء منذ بداية العدوان (في لبنان) عندما كان عمره ثمان سنوات، كما عانى من اللجوء بعدما طردته ومنعته السلطات الصهيونية من دخول البلاد فاستقر في موسكو ثم انتقل إلى القاهرة، فهو لاجئ وغريب عن الوطن، فيصور واقعه النفسي من الواقع المعاش في فلسطين إذ إن اللجوء لأصحاب الأرض الشرعيين، والأمن والاستقرار لأصحاب الاحتلال. فهذه هي سمة من أبرز سمات اللغة عند درويش ألا وهي الانعكاس النفسي على الواقع المعاش.

الألفاظ والتعابير

يتسم أسلوب محمود درويش في مقالاته بالسهولة والبساطة في الصياغة والعرض من خلال استخدام الألفاظ الواضحة الدالة على المعاني مباشرة، واستخدامه لبعض الفنون البلاغية لعرض الفكرة وتصويرها، وخلق نوع من الإيقاع اللفظي والإثارة، وبما أن محمود درويش شاعر فقد تأتي ألفاظه موسيقية تشعرنا ونحن نقرأ مقالاته بأنها على نمط الشعر الحر، فهو يحسن اختيار الألفاظ في تراكيب الجمل لتؤدي المعنى والصور التي توحي بالغرض، ومن ثم تحقق المطلوبة والأساسية في العملية الإبداعية (المبدع والنص والمتلقي) فالمبدع سواء أكان كاتباً أم شاعراً فان ينقل بتجربته بوساطة الألفاظ وتراكيب الجمل، ولا يمكن لهذه التجربة أن تعيش وتحيا وتستمر من دون أن يكون لها مستقبل ومتلق[2].

يقول محمود درويش في مقالته (شيء عن الوطن):

((هذا الوطن الصغير كقبضة اليد، الواسع مثل الأبد هذا الرائع.. هذا الجارح والمجروح.. هذا الوطن، هل يتحول إلى سجن لأبنائه؟.. لقد تمرس كثيراً، بكل الأشكال والألوان، مات كثيراً، وعاش كثيراً، أسماؤه تتغير، وأشجاره تموت وتحيا. ونحن نعانقه عناق الموت، حتى الموت. ومن هذه الحقيقة الساطعة كالشمس والخنجر، من هذا الانتماء المبدع، نأخذ أسباب الخضرة: لنا وطن... نحن لم نبحث

---

(1) شيء عن الوطن: 101- 102.

(2) إشكالية التلقي عند حازم القرطاجني في كتاب منهاج البلغاء، محمود درابسة، مجلة مؤتة للدراسات والبحوث، المجلد (12)، العدد (2) لسنة 1997: 476.

عنه.. عن هذا الوطن في حلم أسطوري وخيال بعيد، ولا في صفحة جميلة من كتاب قديم. نحن لم نصنع هذا الوطن كما تصنع المؤسسات والمنشآت، هو الذي صنعنا، هو أبونا وأمنا..))[1].

يلاحظ أن الألفاظ والتعابير في المقالة السابقة جاءت ملائمة للموضوع فكلمة الوطن رقيقة، وكثيراً ما كان (الوطن = الحبيبة) لذلك اختار الألفاظ الرقيقة الأنيقة: (الواسع، الرائع، الجارح، المجروح، مات، عاش، العناق، الشمس، الوطن..) وفي ذلك جسد حب الوطن، وعلى ذلك نلحظ انسجام الموضوع (الوطن) مع الألفاظ فضلاً عن استخدام بعض الفنون البلاغية مثل الطباق الذي تمثل في: (الصغير، الواسع) و(مات، عاش). فإذا كان الوطن يعني فلسطين دائماً فإن الأرض عند درويش هي الوطن أيضا فهي تستمد معناها وحركتها من ذات الكاتب وأنها تشير إلى الوطن المفقود[2].

يستخدم درويش ألفاظاً وعبارات تدل على شخصيته وذاته من مثل (جدي، أبي، أمي، عمي، صديقي، وطني) إذ إن مجموعته المقالية الثانية (يوميات الحزن العادي) تحمل سيرته الذاتية، فهو قد افتقد حنان جده في اللجوء بعد أن هده التشريد والاغتراب والتفكير في حقوله وأرضه ولم يعد صافي خالي البال كما كان في فلسطين.

ويذكر محمود درويش فضل جده في ثقافته وتعلمه[3]، أما علاقته بأبيه فهي تختلف عن جده الذي رافقه الأب فقد كان الأب يعمل منذ الصباح الباكر حتى المغيب ومدى مرارة الحياة التي يحياها وهو يتحمل مسؤولية ثمانية أشخاص[4].

إن درويش يمزج الكثير من الأبعاد المستمدة من اليومي بظلال الحدث الخام تتجلى بعض أبعاد سيرته لتعبر عن كائن نعرفه ولا نكاد نلمسه في الواقع فيتألف في هذا المزيج البعد الذاتي بأبعاده تشكيلية قد تسهم في ترميزه[5].

فإذا كانت الألفاظ وتعابير درويش في مقالاته الذاتية تحمل الرومانسية والهدوء فإنها في مقالاته السياسية ألفاظاً وتعابيراً نابية تهاجم السياسة الإسرائيلية والحكم العسكري، مقابل التأكيد على الحق الفلسطيني في العيش بسلام على أرضه: (العدو،

---

(1) شيء عن الوطن: 7- 9.
(2) العلامة في شعر محمود درويش، نسيم مصطفى عبد الله، رسالة ماجستير: 28.
(3) يوميات الحزن العادي: 42.
(4) المصدر نفسه: 43.
(5) السيرة في إطار الشعر: قراءة في ديوان محمود درويش لماذا تركت الحصان وحيداً، خليل الشيخ، مجلة أبحاث اليرموك، جامعة مؤتة، الأردن، المجلد (16)، العدد(2) لسنة: 1998: 142.

الاحتلال، العنف، القسوة، الاضطهاد، منع السفر، الإقامة الجبرية، الحق المغتصب، العجز الأمريكي، البطش، امتصاص دم العرب...).

وهذا ما يرد في مقالاته السياسية كثيراً إذ ينطلق ذلك بدءاً من العنوان باتجاه المضمون: (الملف المفتوح)[1]، و(إعلان حرب)[2] ، و(نحن تقاتل وهم يقامرون)[3]، و(هزيمة العدو في ذروة انتصاره)[4]، و(وداعاً أيتها الحرب وداعاً أيها السلام)[5]، و(الطبل والزمر والحكم العسكري)[6]، و(هكذا أعيش وأناضل في إسرائيل)[7]، و(تلك الحرب. هذه الحرب)[8].

(1) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (78) لسنة 1978: 4- 5.
(2) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العددان (74- 75) لسنة 1978: 2.
(3) ينظر: وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 53- 56.
(4) ينظر: المصدر نفسه: 65- 71.
(5)ينظر: المصدر نفسه: 89- 97.
(6)ينظر: شيء عن الوطن: 144- 150.
(7)ينظر: المصدر نفسه: 211- 238.
(8) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (38) لسنة 1974: 4-6.

مصادر اللغة

من خلال استقراء مقالات محمود درويش نرى في أسلوبه تضمين بعض من قصص القرآن الكريم، وأقوال الصحابة فضلاً عن الأمثال والحكم التراثية العربية القديمة، والإشارات الأسطورية والرمزية وبعض الآثار الشعرية والأناشيد القديمة التي تعلمها في المدرسة.

في مقالة (وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام) نجد توظيفاً قصصياً للقرآن الكريم من قصة أصحاب الكهف[1] إذ يقول درويش:

((**كأنه ينزل الآن من أمه، والدهشة عيب في الخارج. قالوا: هذا واحد من أهل الكهف المسنين، ضحكوا منه، لأنه لا يستعمل كلمات مهجورة، ويسأل أسئلة أَسرتها الحرب، اسم الوطن... كأنه غضب وقال: قادم من الكهف؟ نعم، ولكنكم ذاهبون إلى الكهف، مد يده والتقط حفنة وحل، وصاح: اعتبروها سؤالي: العيبُ في الخروج من العبودية، أم في الذهاب الاختياري إلى العبودية؟... قالوا: سرحان يهذي**))[2].

نلاحظ براعة الكاتب في تصوير قصة أهل الكهف، على الواقع الفلسطيني العربي، إذ يصحو من (الواقع القديم) إلى (الواقع الجديد) ويرى أن كل شيء تغير، وكذلك الحال في فلسطين إذ أصبح يهذي بالقديم فلا وطن ولا حرية ولا عيش ولا استقرار في فلسطين لقد تغير كل شيء..

ويوظف محمود درويش قصة موسى (υ)[3] عندما خرج من مصر هارباً في مقالته (الوطن بين الحقيبة والذاكرة) إذ يقول: ((**تخرج مع موسى من مصر هاربا. تضرب البحر بعصا. ينشق البحر. يمر بنو إسرائيل، ثم يلتهم البحر أعدائهم، تبقى في صحراء سينا أربعين عاماً تتصالح مع الرب، وتعود..**))[4]

يورد درويش إشارة خفية إلى الملك سليمان (υ):

((**كان دم عربي يسيل في شوارع بيروت، وكان يتحول إلى زيت ينعش الأرز القديم الذي أهدي إلى الملك سليمان لبناء الهيكل**))[5].

ويوظف درويش من أقوال الصحابة ومن ذلك حكمة الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري (τ):

---

(1) ينظر: سورة الكهف.
(2) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 89- 90.
(3) ينظر: سورة القصص.
(4) يوميات الحزن العادي: 53.
(5) ينظر: يوميات الحزن العادي: 36.

((يجب الاستفادة من حكمة أبي ذر الغفاري التي عجب فيها ممن لا يجد قوتاً في بيته كيف لا يخرج إلى الناس شاهراً سيفه))[1].

وهذه الحكمة ضربت على سبيل التشبيه للفلسطيني الذي أصبح لا بيت له ولا قوت فعليه أن يخرج سيفه لقتال الأعداء الصهاينة.

ومن الحكم التي جاءت على سبيل السخرية ما جاء في مقالة (شيء عن.. أمنون لين):

((كل شيء عند العطار، إلا حبي غصب))[2].

ويوظف محمود درويش الأساطير من مثل حصان طروادة في مقالة (وطن آخر):

((هذا الاغتراب كان حصان طروادة..))[3]. كما يوظف نجمة داود(υ) كما في مقالة (هزيمة العدو):

((إن طائرة الفانتوم مثلاً ـــ حين تحمل نجمة داود ـــ تشكل ضماناً أبدياً لأمنهم المستحيل. لقد صار الارتكاز على أجنحة هذه الأسطورة العصرية من جهة، وعلى حائط المبكى الذي يمثل حيوية الأسطورة القديمة من جهة أخرى، صار بديلاً للاحتكام إلى وسائل أخرى أكثر منطقية للبحث عن مستقبل أقل تطاولاً على تاريخ المنطقة وأقل استفزازاً لشعوبها))[4].

ويسعى درويش لذكر شخصيات من التاريخ القديم والحديث بمثابة رموز تعبر عن الأفكار والرؤى كما في مقالة (الفرح عندما يخون) ومن ذلك ذكر شخصية أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الناصر ومرج بن عامر[5].: ((كانت فلسطين ملتقى الشرق وفيها غنى عبد الوهاب وأم كلثوم... وفي الداخل تأكل من قمح مرج بن عامر))

ويأتي ذكر المتنبي في مقالة (الوطن بين الذاكرة والحقيبة):

((ولم نأخذ من المتنبي إلا " وفيك الخصام وأنت الخصم والحكمُ "
هم الخصوم والحكام..
وهم الذين يحددون لنا " ما هو الوطن "))[6].

ويورد محمود درويش نشيداً تعلمه في المدرسة في مقالته (الوطن بين الذاكرة والحقيبة):

---

(1) شيء عن الوطن: 205.
(2) المصدر نفسه: 135.
(3) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 40.
(4) المصدر نفسه: 66.
(5) يوميات الحزن العادي: 141.
(6) يوميات الحزن العادي: 52- 53.

((ـــ ماذا تعلمت في المدرسة؟
سلام على العصفور العائد من بلاد الشمس إلى نافذتي في المنفى. أخبرني أيها العصفور عن حال أهلي وأجدادي
ـــ والأغنية السابقة؟
ـــ ألغوها
ـــ ماذا كانت تقول الأغنية التي ألغوها؟
عليك مني السلام..
يا أرض أجدادي
ففيك طاب المقام
وطاب إنشادي))[1].

وعلى ذلك فالعدو الإسرائيلي يحاول إلغاء أناشيد الطفولة التي تتغنى بأرض الأجداد لأنها تحمل السلام والأمان.

(1) يوميات الحزن العادي: 43.